صائد الأرواح

روايـة

هدى عامر

٢٠١٧

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصوري

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2017 / 8716
ISBN: 978 - 477 - 6580 - 66 - 4

أنا فتاة في مقتبل العمر، جميلة، ممشوقة القوام، سمراء البشرة، سوداء العينين، باسمة الوجه، نشيطة في عملي، ذلك لشدة حبي لطبيعة هذا العمل.. فأنا أعمل مرشدة سياحية، أتقن عددًا من اللغات وأعامل الأجانب وكأنهم عائلتي وهم أيضًا يبادلونني نفس الشعور.

أسرتي غنية، تملك من الأطيان والمال الكثير. والدي تاجرٌ كبيرٌ له اسمٌ معروفٌ في سوق العمل.. يميل إلى الصداقات، خاصة صداقاته النسائية، الشيء الذي جعل والدتي تكره الحياة معه. انفصل والداي عنا وعاش كل منهما حياته الخاصة يستمتع بها كما يحلو له.

تنازلت والدتي لي عن الفيلا التي أعيش فيها مع أختي، أجمل البنات، إلا أنها للأسف معاقة ومنطوية على نفسها.. والفيلا تحتوي على ثلاثة أدوار كلها تطل على الجبل.. مما يمكِّنك أن ترى السيارات التي تصعد الجبل أو تخرج منه.

كما ترى أجمل المناظر الطبيعية، كالسماء الصافية التي تتلألأ فيها النجوم خاصة في المساء وكأنها حبات من الأحجار الكريمة البراقة. كما ترى العمارات والمنازل تنبعث منها أنوارٌ رائعة تضفي على النفس البهجة والسرور.. وبمدخل الفيلا حمام سباحة فخم، أرضيته رخامية ومعظم أركانه محاطة بقنينات من الفخار اليدوي الصنع، الذي أبدع الفنان المصري العظيم في صناعته.

كانت أمي تحرص على أن يكون في كل قنينة مجموعة من الزهور الزاهية ذات الألوان الرائعة، التي يملأ عبيرها المكان ويدخل على النفس البهجة والحب الدائم للطبيعة الخلابة. كانت الأدوار العليا مخصَّصة لغرف النوم وهي مفروشة بأفخم الأثاث المحلي والمستورد غالي الثمن، خاصة حجرة نومي، فهي واسعة وبها تراس كبير تحتضنه هذه الطبيعة، ويوجد بها أنتريه ومكتبٌ خاصٌّ بي وحمامٌ واسعٌ مريحٌ يحتوي على كل ما أحتاجه لتصفيف الشعر وعمل الساونا والمكياج، وبالحجرة أيضًا ملحق صغير به كل الأدوات الرياضية الخاصة بالرشاقة، التي استعملها باستمرار.

أما الدور الأرضي فيتكون من استقبال الضيوف العاديين واستقبال الخاصة من علية القوم والعظماء من ذوي المناصب المرموقة، الذين كانوا يحضرون للتشاور مع أبي في أمور العمل. كنت أحب هذه القاعة جدًّا، فكلما أردت أن أكتب شيئًا كرسالة أو فكرة، أو أرغب في الجلوس مع نفسي للتأمل تكون هذه القاعة ملاذي الوحيد..

أسفل هذا الدور يوجد البدروم الذي يضم المطبخ وحجرات الخدم وكل ما يلزمهم.. كانت هذه فيلتي أنا وأختي، وكان من ضمن ممتلكاتي سيارتي الجميلة الفاخرة التي أضفت لها مسجل «ستيريو» بسماعات مجسمة ومجموعة من أشرطة الموسيقى الأجنبية والأغاني الصاخبة

التي أعشق سماعها، خاصة عندما أرفع صوت المسجل إلى أعلى درجة..

أنا واثقة أنَّ كل مَن كان يسمع هذا الصوت يهتز بشدة من الضجة الهائلة التي تصدر منه، لكن ما باليد حيلة، إنَّ هوايتي المفضَّلة هي سماع هذا النوع من الموسيقى التي تجعلني أرقص وأهتز بشدة وأنا خلف عجلة القيادة أضرب بيدي عليها وكأني أشارك الفرقة الموسيقية التي تعزفها، كل هذا وأنا صاعدة الجبل عائدة إلى فيلتي في الأوقات المتأخرة من الليل،

كان هذا يشعرني بعدم الخوف من ظلام الليل والسكون الذي يحيط بالمكان.. أحببت حياتي كثيرًا وأحببت عملي ووالديَّ اللذين ما برحت أفكر في أن يجمعنا البيت مرة أخرى لتكتمل سعادتي أنا وأختي، أما حياتي الخاصة، فللأسف لم يدق قلبي لحبيب حتى الآن فلم أجد فتى أحلامي بعد، وعمومًا أنا لست عجولة بطبعي.

ذات يوم وأنا عائدة من عملي متأخرة كعادتي وأنغام الموسيقى العالية تشغلني عن أي شيء، وبينما أقود السيارة بسرعة وأنا شاردة مع اللحن، إذا بالسيارة تنحرف بشدة ناحية الشمال حتى باتت العجلتان الأماميتان كأنهما تطيران في الهواء، والعجلتان الخلفيتان غرزتا في الأرض، وأي حركة مني ستسقط السيارة بالتأكيد.

كتمت أنفاسي وأمسكت بفرامل اليد وزاغت عيناي يمينًا ويسارًا،

وأسرعت ضربات قلبي، وتقلص الهواء داخل صدري، وتملكني رعبٌ عظيمٌ، كما امتلأ قلبي خوفًا وقلقًا وحيرة من المجهول. بسرعة البرق ظهر شابٌ كأنه طائرٌ في الهواء يجري نحوي بأقصى بسرعة، وفي لمح البصر جذب السيارة بقوة تساوي قوى أعظم حاملي الأثقال، مع أنه كما رأيته كان شابًا نحيل القوام.

أنقذني هذا الشاب من سقوط محقق وهلاك مؤكد، وفي لمح البصر فتح الباب وشدني خارج السيارة فما كان مني إلا أن لففت ذراعي حول رقبته.. ولفحت أنفاسه وجهي، فشعرت بالدفء في وقت هربت فيه كل دمائي وثلجت أطرافي وشعرت بنبض قلبي وقلبه متلاحمين، كما شعرت أيضًا بجسده يرتجف.

ضمني إليه، ثم أجلسني بعيدًا عن السيارة على حجر ملقى بمطلع الجبل، ثم أخذ يدلك لي أطرافي وملَّس على شعري. ابتسمتُ له فتجاوب معي بابتسامة هادئة، ثم قال: «الحمد لله على سلامتك»، قلت له: «لن أنسى معروفك ما حييت، لقد حضرت في الوقت المناسب»، فقال:

«إنها الأقدار.. هيا أوصلك لفيلتك»، تعجبت كيف عرف أني أسكن فيلا؟! لماذا لم يقل إلى بيتك أو عمارتك مثلاً.. قلت لنفسي: «ربما لشدة خوفي جاءت كلمة فيلا على لساني أمامه». أحسست بأني ما عدت أشعر إلا بشيء واحد وهو أن هذا الشاب الوسيم حرك كل شعوري بالحب..

نسيت- بلمساته ودفء أنفاسه التي بعثت في نفسي السعادة- أني كنت سأموت منذ دقائق في هذا الحادث المروع الرهيب. جلس منقذي خلف عجلة القيادة بعد أن تفحص السيارة، وقال: «الحمد للّه ليس بها شيء»، نظرت خلسة إلى هذا الشاب.. لقد كان جميلاً وسيمًا أنيقًا يرتدي بدلة بيضاء ويضع منديلاً أبيض، كان هو ذاته أبيض البشرة، ناعم الأنامل، دافئ الحديث، مَن ينظر إليه ينسى نفسه ويذوب في كلماته.

ارتجف قلبي وشعرت بأنَّه ربما يكون فارس أحلامي الذي أنتظره منذ زمن.. وتذكرت في الحال كلمات جدتي.. فمنذ نعومة أظافري فتحت لي أوراق الكوتشينة التي كانت هوايتها المفضلة كعادة كل كبار السن، وقالت لي إني سأقابل حبيبًا.. شابًا هادئًا وسيمًا وجميلاً، ثم سكتت ولمعت عيناها وترقرقت فيهما دمعة كبيرة ولم تكمل الحديث الذي عرفتّه من أوراق الكوتشينة.

قلت لها: «ما بكِ يا جدتي«.. ردت على: «إن المستقبل بيد اللّه سبحانه»، وربتت على كتفي وضمت أوراقها، ومن بعدها لم تفتح أوراق الكوتشينة لي أو لأحد آخر مطلقًا. وتذكرت أيضًا أني ذهبت إلى حجرتها بعد أيام وكنت مشتاقة جدًّا لأعرف مَن هو هذا الحبيب الذي رأته في أوراق الكوتشينة وألححت عليها ورجوتها أن تخبرني عنه.

فقالت: «إنك سوف تقابلينه في ظروف عصيبة وستحبينه وسيحبك حبًّا عظيمًا، وسيجعل منك هذا الحب إنسانة رائعة عاقلة متفتحة، فليرعاكِ الله يا بنتي».

لم تشفِ هذه الكلمات لهفتي لمعرفة مَن هو فارس أحلامي، إلا أنه بمرور الأيام نسيت هذا الموضوع ولم أفتحه مع جدتي مرة أخرى. وقفت السيارة فخرجت من شرودي ووجدت نفسي أمام الفيلا ولا أعرف كيف عرف هذا الشاب المكان! هل أخبرته بالعنوان عندما أعطيته مفتاح السيارة؟ هل فقدت التركيز إلى هذا الحد؟! ربما، فالحادث مخيفٌ ومميتٌ.

خرج الشابُ الوسيمُ من السيارة ودار حولها وفتح لي الباب وأمسك بيدي وأخرجني منها إلى الباب الكبير الذي سرعان ما فتحه الحارس وموظف الأمن، قال الشاب: «تفضلي وانتبهي لنفسك مستقبلاً».

أمسكت بيد الشاب وكأني أرجوه أن لا يتركني، ونظرت في عينيه فوجدتهما جميلتين، عميقتين، جذابتين، وشَعَرَ هو بمكنون نفسي ورد علي: «لن أتركك وسأرعاك قدر استطاعتي ولن أتخلى عنكِ أبدًا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً». فرحت بكلماته: «إذًا هو شَعَرَ بي..

أكيد أحسَّ بنبض قلبي ورعشة يدي وطلبت منه الدخول قائلةً: «ألا تتناول أي مشروب بعد تلك اللحظات الرهيبة التي مرَّت بنا، هل أنت

بخيل أم تجدني لا أستحق جلوسك معي». قال: «معاذ اللّه، لا تقولي هذا إنه شرفٌ لي»، وأمسك بيدي واستندت إليه ودخلنا إلى القاعة المخصصة لكبار الزوار، وجلست بجواره وضغطت على الجرس الخاص بجمع الخدم، فحضروا في التو واللحظة وعرفوا ما حدث لي وسمعتْ أختي حديثي وهي جالسة على كرسيها المتحرك بالدور العلوي فأخذت المصعد المعد لها لتستعمله في الصعود والهبوط، وجاءت مسرعة لتحتضني وقبلتني ومن شدة فرحتها بسلامتي حضنت الشاب وقبلت يده وفرح الجميع به، ودعوا له بطول العمر والصحة.

ومع كل هذه الحفاوة والفرحة والاحتفال به، كان هادئ النفس، باسم الوجه في خجل ملحوظ. سألته عن اسمه فقال: «اسمي عائد كريم»، وتعجبت للاسم! فقال: «ليس لي ذنبٌ في تسميتي». قلت له بسرعة: «إنه اسمٌ جميلٌ وعظيمٌ وأنا اسمي.. »، فقال: «أعرف اسمك فهو اسمٌ جميلٌ أيضًا».

قالت أختي ضاحكة: «هل تعرف الطالع»، قال: «لا أبدًا إني قرأته على تبلوه السيارة بجوار صورتها»، ذهبت بخيالي بعيدًا وتعجبت إن المكان كان مظلمًا والوقت عصيب ولم تتح له أي فرصة ليقرأ اسمي، هو فعلاً مكتوبٌ على تبلوه السيارة لكني وضعته بعيدًا عن قائد السيارة ولم يلحظه أحدٌ حتى بالنهار، كما أنه مكتوبٌ باللغة الإنجليزية.. أرجعت

ذلك لذكائه وقوة ملاحظته، ثم سألته : «ما رأيك باسمي» فقال : «ليلى إنه اسمٌ جميلٌ، واللّه».

حضرت الخادمة تدفع عربة الشاي محمَّلة بالفطائر وقطعة كبيرة من تورتة التفاح وبعض الفاكهة، وجلس ثلاثتنا نتناول الشاي والحلوى وشعرت بأنَّه أجمل شاي تذوقته في حياتي، لكني لاحظت أنَّ عائد لم يأكل أو يشرب أي شيء، ومع ذلك كان طبقه خاليًّا من الطعام وفنجانه أيضًا.

ابتسمت، ثم قلت في نفسي إنه يوم التهيؤات، فقد تهيأ لي الكثير من الأشياء، فياله من يوم عصيب بعد تلك الحادثة التي وقعت على مطلع الجبل. وهمَّ عائد بالانصراف. ودَّعته وطلبت منه أن يوصله السائق إلى منزله لكنه رفض بإصرار وودَّعني في عجلة، ثم خرج مسرعًا لكني استوقفته للحضور لتناول العشاء معنا فوافق من أجلي وقال: «سأفعل بإذن اللّه».

صعدتُ بسرعة لأشاهده من شرفة غرفتي وهو يسير مبتعدًا عن الفيلا، إلا أني لم أجده، وكأنه تبخر، وأخذت أنظر في كل الاتجاهات فلم أجده. صاعدًا أو نازلاً أو بين طرقات الجبل. وقعت في حيرة: «ربما يكون الظلام قد أخفاه عن مرمى بصري».

جلست على كرسي قريب مني بالشرفة ورفعت رأسي للسماء التي

كانت صافية ليس بها أي سحب سوى سحابة كبيرة تحيط بالمكان، تعمقت بنظري داخل السحابة وأنا شاردة فوجدتها كعينين كبيرتين جميلتين تنظران إليَّ وكأنها تحرسني من شر سوف يقع، وازداد تعمقي وأنا شاردة وبالعكس كان ارتياحي كبيرًا هذه المرة.. لوجود تلك العينين اللتين تخيلتهما داخل السحابة. دخلتُ حجرتي وارتميت على فراشي وصورة العينين الجميلتين تملأ مخيلتي.. وقلت لنفسي: «سأسميهما العيون الحارسة».

دارت كل الأحداث التي قابلتها في هذا اليوم في رأسي من صعودي المعتاد للجبل والموسيقى العالية ورقصي خلف عجلة القيادة، ثم انحراف السيارة، والشاب الوسيم الذي أحببته من أول نظرة وكأني أعرفه من سنوات طويلة، ثم ذهبت في نوم عميق هادئ. استيقظت في الصباح متكاسلة لكني سرعان ما أفقت وقمت ببعض الرياضة الخفيفة، ثم اغتسلت وارتديت ملابسي ونزلت إلى البهو بعدما ناديت خادم غرفة الطعام ليعد القاعة إعدادًا خاصًّا، كما أوصيت الطاهي بعمل عشاء فاخر لضيف عزيز جدًّا.

تناولت إفطارًا خفيفًا وأخذت سيارتي، ثم ذهبت إلى العمل.. وكالعادة فتحت مذياع السيارة ورفعت الصوت إلى آخره وأنا أطرق بيدي على عجلة القيادة، فهذا هو أسلوبي في سماع الموسيقى كما قلت،

إلا أني هذه المرة كنت شاردة الذهن في هذا الحب الذي طرق باب قلبي، وأنهيت عملي عصرًا واعتذرت لرؤسائي عن عدم الحضور في المساء لظروف طارئة ووافق رئيسي على ذلك. كنت فرحة لهذه الإجازة القصيرة والسويعات القليلة التي ستجمعني بهذا الشاب الذي أنقذ حياتي واستحوذ على قلبي. عند وصولي إلى الفيلا وجدت العمل فيها على قدم وساق.

الكل يقوم بالتنظيف والتلميع وتحضير الأطباق الفضية الخاصة باستقبال الضيوف للغداء أو العشاء، ووضع زهور جميلة قُطفت من البستان المحيط بالفيلا، واستقبلتني أختي فرحة بعودتي، كنت سعيدة وأريد أن أقبِّل كل مَن حولي.. كنت فرحة وأنا أعلم سر سعادتي وهو أني لأول مرة أستقبل في بيتي شابًا وسيمًا أميل إليه، وأنا التي لم تفتح قلبها لأحد من قبل ربما بسبب الخلافات العائلية التي كانت بين والديَّ.

أخذت حمامًا سريعًا وقسطًا من الراحة في سريري، وفي الموعد المحدد ارتديت أجمل ما عندي من الثياب، فستانًا جميلًا لونه برونزي فاتح بحمالات تكشف جزءًا كبيرًا من صدري يزينه قلبٌ صغيرٌ من الذهب، رفعت شعري وأمسكته بمشط من نفس لون الفستان، وارتديت حذاءً عاليًّا مناسبًا، ووضعت على رقبتي وأذني عطرًا غالي الثمن رائحته تدغدغ الأعصاب، وفي الموعد المرتقب دق جرس الباب ورقصتْ

دقات قلبي مع دقات الجرس، وقامت الخادمة باستقبال الشاب وأدخلته حجرة الاستقبال التي تطل على حمام السباحة، وفي لحظات بسيطة كنت بجواره أستقبله في حرارة وأنا أشدُّ على يده وابتسامتي تملأ وجهي، رد عليَّ السلام بأجمل منه وسألني: «كيف أنتِ الآن؟».

قلت له: «إني قلقة ومشتاقة إليك وكأني أعرفك منذ سنوات»، قال: «وأنا كذلك».

جلسنا ننظر لبعضنا، وعندما تتقابل عيوننا يخجل ويرمي بنظره بعيدًا وعرفت مكنون نفسه. أعتقد أنه مال إليَّ أو أعجبته ولو قليلاً، ولكنه كان خجولاً في كل تصرفاته، ومن قنينة على طاوله في ركن القاعة أخذ وردة بيضاء ناصعة جميلة وقدمها لي بعد ما لمس بها شفتيه وفرحت بالوردة كأنه قدَّم لي كنوز الدنيا..

قلت لنفسي: «ما هذا الذي أنا به، هل أحببت هذا الشاب كل هذا الحب لأنه أنقذني من سقوط محقق من فوق الجبل أم أن هذا الشاب هو فارس أحلامي الذي انتظرته طويلاً أم أن الأقدار ساقته إليَّ بعد طول انتظار لكي أعيش قصة حب تمنيتها من سنوات هل سيبادلني هذا الشعور الطيب الجميل أم أنه يجاملني؟.. يخيل إليَّ أنه وقع في غرامي»..

وابتسمت في نفسي وقلت سنرى، فالأيام بيننا.. وسمعت صوته فجأة

يقول لي: «إن فستانكِ جميلٌ للغاية ما رأيت أجمل منه، خاصة لأنك ترتدينه». شكرته على ملاحظته ومجاملته، وجاءت أختي وحيَّته بتحية ظريفة وكلمات رقيقة، ومن خلفها جاءت الخادمة بالمشروبات المثلجة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث.

حاولتُ جاهدةً أن أبتعد عن ما حدث بالأمس حتى لا أفسد السهرة، ثم جاء وقت تناول العشاء وجلس ثلاثتنا نتناول الطعام في هدوء وراحة نفسية عالية، لكني لاحظت أنَّ كمية الطعام التي وُضعت أمام الشاب قد انتهت، بينما لم ألاحظه أبدًا يمضغ الطعام أو يضعه في فمه..

سرعان ما قلت لنفسي ربما لعدم تركيزي لكثرة انشغالي في التفكير فيه. أكل كل طعامه وجاءني صوته يقول بوقار: «لقد كان الطعام شهيًّا لم أتذوق مثله من سنوات».. فرحت بمدحه للطعام، كما فرحت بمغزى كلماته، وهو وجودي معه هذا الذي جعل الطعام له طعمٌ خاصٌّ.. ودعوته لأخذ القهوة على حمام السباحة وخرجنا من باب البهو إلى الحديقة، بينما تعزف أختي على البيانو لحنًا جميلاً هادئًا من الألحان التي تثير الشجن وتلهب العواطف.

سألته عن حياته الاجتماعية فرد قائلاً: «إني أعمل في وظيفة بسيطة بشركة استيراد وتصدير، في العلاقات العامة، ومن أسرة فقير ة لأب وأم ريفييْن طيبيْن ليس لهما أحد سواي.

أسكن في آخر الجبل جهة الشمال، وكان لي خطيبة أحببتها كثيرًا كانت بالنسبة لي كل شيء، كانت الأمل والبسمة، كانت النور الذي يضيء حياتي، إنها تشبهك كثيرًا في طيبتها وشقاوتها وجمالها، إنها صورة منكِ وكأنك هي، إلا أن الفرق بينكما ملابسكِ ورائحة عطركِ وغناكِ ووجاهتك، كانت تعمل مقص دار في إحدى بيوت الأزياء الكبيرة وكانت ماهرة جدًّا في عملها ومع ذلك تتقاضى مرتبًا بسيطًا لأنَّ صاحب العمل ينسب كل مهارتها في العمل لنفسه..

يأخذ هو الآلاف وتأخذ هي الفتات. كنت أنتظرها كل يوم عند مطلع الجبل أثناء عودتها مساءً من عملها أقابلها بالحب والود والسعادة تتشابك أيدينا سويًّا ونصعد الجبل سيرًا على الأقدام إلى بيوتنا ونحن سعيدان، نمرح ونجري وكأن الدنيا لنا وحدنا» وسكت برهة..

وأخذ نفسًا عميقًا ولاحَ الحزنُ كل الحزن في عينيه، وسالت دموعه على وجنتيه، بينما تنهَّد بصعوبة وقال: «لقد ماتت.. سقطت من فوق الجبل وهي عائدة في سيارة العمل ومات معها السائق في الحال. لقد رأيت السيارة وهي تسقط وحاولت إنقاذها ولكن يد القدر كانت أعلى وأقوى من يدي..

سمعتها تصرخ أنقذني ولكن للحظات، ثم اختفى الصوت وكأن الحياة قد توقفت. ماتت كل خلجاتي لدقائق»، ثم استطرد قائلاً بحزن

مرير: «ماتت حبيبتي. كانت أمي وأختي، كانت الصديق الوفي والحبيبة المخلصة، لو عاشت لكانت زوجة صالحة وأمًّا عظيمة لأولادي.. آه.. آه»، وهب واقفًا مرتعشًا، ثم قال:

«أتسمحين بكوب ماء، فتركته بعد أن ربَّتُ على ظهره معتذرة أني سألته هذا السؤال الذي أثار فيه كل هذا الحزن وهرعت إلى داخل الفيلا لأحضر له كوب الماء ولأترك له لحظات يستعيد فيها نفسه ويلملم جراحه.

عند عودتي بكوب الماء لم أجده في الحديقة ولا حول حمام السباحة، وضعت كوب الماء على الطاولة وخرجت مسرعة إلى ناحية البوابة كي أراه فلم أجد أحدًا ولا حتى موظف الأمن. لم أسأل عنه.. ذُهلت من موقفه وصعدت مسرعة إلى التراس لكي أراه وهو يسير في اتجاه منزله أو نازلاً من الجبل وكالمرة الأولى لم أره.. تلاشى..

ذاب وسط الظلام واختفى بين المنازل والأشجار ولم أرَ حتى طيفه.. لقد احتواني هذا الشاب وامتلك فؤادي وتغلغل في كياني. إني فعلاً أحبه بشدة وقوة ويا ليته يعلم ذلك، ولكن خصمي شديد..

إنها خطيبته وحبيبته. إن حزنه أعمق مما تصوَّرت فكيف أنافسها إذًا، وبسرعة أجبت نفسي ولكنها ميتة والحي أبقى من الميت عمومًا أنا مصممة على أن يكون هذا الشاب رجلي وفارس أحلامي، سأصبر

وأقاوم حتى أنال حبه وأملك نفسه وقلبه وهو قريبٌ من ذلك لأني أعلم أنَّه هو أيضًا يبادلني ذلك الحب، لكن الذكرى والوفاء يجعلاه يقاوم حبي، لن يستمر في هذه المقاومة طويلاً، بإذن الله وسأعمل جاهدة على أن أجعل حياته سعيدة ولن ألتفت أبدًا لأي فروق مالية أو اجتماعية، فهو رجلٌ حساسٌ يملك من الشعور النبيل الطيب الكثيرَ، وهذه المواصفات تساوي عندي كنوز الدنيا.

مرَّ أسبوعٌ ولم يحضر لزيارتي أو ينتظرني بمطلع الجبل، كما فعل سابقًا ولم أسمع عنه شيئًا. دخلت حجرتي بعد عودتي من العمل في منتصف الليل ولم أجد لنفسي شهية لتناول الطعام الذي أُعدَّ لي، فأمرت الخدم برفعه وعدم إزعاجي.. وفجأة رن جرس التليفون..

لقد أفزعني كثيرًا لأني كنت شاردة الذهن. رفعت السماعة بسرعة فسمعت حلاوة صوته سمعت شجن نبراته التي هزت فؤادي.. قال: «أما زلت مستيقظة؟».. قلت له:

«وكيف لي النوم أو الأكل دونك؟ إني جالسة شاردة بالتراس أنظر للسماء لأرى سحابة صديقتي تؤنسني دائمًا في وحدتي فهي تحمل لي عينين جميلتين هادئتين تعوضاني عن عدم وجودك.. عندما دق جرس التليفون خلع قلبي من مكانه إلا أنك فاجأتني بصوتك العذب وما أحلى المفاجأة! ».. قال:

«صحيح! هل تعوِّضك هذه العيون عني» قلت: «لا يعوضني شيء في الدنيا عنك. إنها عيونٌ في خيالي. إنها برأسي فقط وليس لها حقيقة، أما أنت فكل الحقيقة وكل الحب وكل الوجود»..

ثم قلت: «بحبك بحبك إنك ملكت روحي، وملكت قلبي لقد أصبحت بداخل عقلي، في خلجاتي، في كياني كله، وحشتني يا حبيبي، أين أنت»..
قال: «سامحيني لخروجي المفاجئ لقد غضبت من نفسي لأني أزعجتك بقصتي ولذا خجلت وتركت الفيلا حتى أتمكَّن من كبت غضبي وحزني وأنا وحدي فرجائي أن تقبلي اعتذاري»..

فأجبته بلهفة: «لم أغضبت منك أبدًا، بالعكس أنا اقتربت منك أكثر، احترمتك لحبك ووفائك لها.. احترمت دموعك وحزنك.. لقد كشفت أنك فعلاً أجمل إنسان رأته عيناي.. عائد أرجوك تعال.. وحشتني أريد أن أراك، أتحدث إليك فلا تجعلني أغضب منك».. رد قائلاً: «انتظريني يا حبيبتي سأحضر إليك غدًا في نفس الميعاد».. كان لكلماته وقع السحر.

طلبت خادمتي الخاصة بسرعة وأمرتها بإعداد العشاء لي لأني شعرت بالجوع فجأة رغم أني لم أكن جائعة قبل مكالمة عائد ولاحظتُ تعجبَ الخادمة! فابتسمتُ قائلة: «لا تتعجبي فأنا هذه الأيام متقلبة الأحوال»، وابتسمت هي أيضًا وخرجت مسرعة فرحة لتلبية طلبي،

وحمدت اللّه أن عائد لم يتركني حزينة وأرضاني قبل نومي.

جاء الميعاد وقابلته بكل ترحاب وأصبحت لقاءاتنا متعددة ينتظرني كل يوم عند مطلع الجبل.. أنتقل من مقعدي وأترك له مقعد القيادة ونذهب سويًّا إلى الفيلا وأحيانًا كنا ندور حول الجبل عدة مرات ونحن نتسامر ونلهو ويضمني إليه وأرتمي على صدره طول الطريق، لقد أصبح كل حياتي، كل عمري، كل حاضري، إنه فارس أحلامي.

قلت له: «عائد إن عيد ميلادي غدًا وسوف أحضر من عملي عند الحادية عشرة تقريبًا.. فهل ستحضر غدًا لتشاركني هذا اليوم الجميل« قال: «وهل سيحضر عيد ميلادك جمعٌ من الناس؟»

قلت: «إذا لم ترد سوف أكتفي بك، فأنت كل الناس عندي».. ابتسم بخجل وقال: «في هذه الحالة سأحضر».

فرحت وجهزت الفيلا لحفلة عيد ميلادي. سوف أكون أنا وهو فقط.. سأرقص معه على كل الألحان التي أحبها. سأحاول أن أنتزعه من حزنه سيكون لي وأكون له..

لبست أغلى ما عندي من الثياب الفاخرة واشتريت له زجاجة عطر فرنسي غالية الثمن، من العطور التي أعشقها وأحب رائحتها، وعندما حضر في الميعاد كان أول ما فعلته أن أهديته زجاجة العطر فابتسم وقال: «مَن يهدي مَن؟!»

قلت له: «نحن كيانٌ واحدٌ»، ولكنه تركني وخرج إلى باب البهو الكبير وفتحه وهو يقول لي: «لكِ عندي مفاجأة».. وأحضر بوكيهًا من الورد به وردتان فقط.. وردتان لم أرَ مثلهما في الوجود.. لهما رائحة كريمة ملأت المكان كله في لحظات.. وردتان نادرتان تنبعث منهما رائحة تبعث في النفس الهدوء والرضا والسكينة. قلت له: «يا إلهي إنها نادرة لم أرَ مثلهما من قبل من أين أتيت بهما».

قال لي بكلمات عذبة وهو مورد الخدين: «إنهما من الجنة».. قلت: «فعلاً إنهما من اللجنة ما دمت أنت الذي أتيت بهما. سبحان الخالق».

أحضرت قنينة فضية مطعَّمة بالذهب ووضعت الوردتين في الماء. عاشت الوردتان معي مدة طويلة دون أن تذبلا أو تضيع رائحتهما، ما أندرهما وما أجملهما! ذات ليلة وأنا عائدة من عملي وفي نفس المكان الذي كان عائد ينتظرني فيه عند مطلع الجبل وقفت بالسيارة وبحثت عنه فلم أجده فناديت عليه فلم يجب، ترجلت وأشعلت أنوار السيارة وناديت مرة ومرات بلا جدوى..

خفت لوجودي في هذا المكان الموحش، خاصة وأنا خارج السيارة وشعرت برجفة فدخلت مسرعة إلى السيارة وفتحت المسجِّل ورفعت الصوت إلى أعلى درجة حتى يخرجني من خوفي.

قدت السيارة لمسافة عدة أمتار، وفجأة انحرفت السيارة بشدة

وحاولت جاهدة أن أمسك بالفرامل العادية، ثم فرامل اليد وكأن قوة شيطانية تجرني إلى الهاوية ودعوت ربي لينقذني وصرخت بأعلى صوتي أين أنت يا عائد..

وفي لمح البصر كنت خارج السيارة ملقاة على الأرض والسيارة تهوي من أعلى الجبل إلى الأرض، محدثة صوتًا مدويًّا واشتعلت بها النيران في الحال.. وضج المكان بصوت فرقعة وضحكات تقشعر لها الأبدان وأصوات حشرجة وجدال ونقاش ووعد ووعيد..

لغط هائل من هذا وذاك، بينما أنا شبه مغمى علي. فتحت عيناي بعد برهة ووجدته.. وجدت عائدي منقذي للمرة الثانية. لقد حملني وضمني بقوة وسمعت صوته يعتذر لتأخره وكأني كنت أحلم بوجوده.. خيِّل إلي أني بين يدي عائد وكأننا نسبح في الفضاء البعيد..

لحظات ووجدت نفسي في سريري.. ولم أدرِ بعد ذلك بأي شيء، فقد رحت في سبات عميق.. فتحت عيناي ووجدت أبي وأمي وأختي وخدمي وعائد بينهم أيضًا. أطلعهم عائد على الحادثة..

قصة إنقاذي من الموت مرتين والسيارة التي انقلبت، ووجدت كل الموجودين يشكرون الشاب ويشدون على يديه لأنَّه أنقذني من الموت، ومع أنَّ كل المحيطين بي كانوا أحبائي إلا أني دخلت في انهيار عصبي وتلاحقت صور الموقف كلها أمامي..

كل الصور من لحظة معرفتي بعائد وحتى وجدت نفسي أطير في الهواء، لقد رأيت ذلك فعلاً، أنا متأكدة هذه المرة أن عائد طار بي في الهواء وتذكرت كل شيء كيف تلاشى واختفى عندما تذكَّر خطيبته.. كيف فرغ الطعام من أطباقه وهو لم يأكله.. تذكرت الوردتين اللتين لم تموتا قط..

لقد قال أحضرتهما من الجنة.. تذكرت العينين اللتين تحرساني، ولمعتْ في ذهني صورته عندما ناديته وأنا أهوي من على الجبل، مستغيثة فحضر في لمح البصر. مَن يكون هذا الإنسان أهو فعلاً إنسانٌ؟! وذهبت في سبات عميق ومرَّت مدة طويلة دون أن أراه أو يزورني وعندما تقاربت للشفاء جاءتني الخادمة مسرعة تحمل باقة ورود حمراء غاية في الذوق والجمال..

لكن عندما وضعتها على الطاولة القريبة من النافذة في البهو شعرت بأن قلبي قد قُبض وكأني أختنق، وبسرعة قرأت البطاقة المصاحبة للزهور لأعلم مَن أرسل هذه الورود! وقرأت عبارة: «أنتِ لي مهما طال الزمن أنتِ لي»..

فرحت بالكلمات.. إذًا الورود من عائد حبيبي الذي غاب عني شهرًا كاملاً دون أن يترك تليفونه أو عنوانًا له أستدل عليه منه، لقد أرسلت مَن يبحث عنه طيلة هذا الشهر دون أي فائدة لم يعرفه أحدٌ، قلت

للخادمة مَن أحضر هذه الورود قالت: «سمعت جرس الباب يا سيدتي، ففتحته، ووجدت هذا البوكيه أمام الباب ولم أجد عامل الورد الذي أحضره فأحضرته لكِ في التو».

تعجبت وقلت: «ربما خجل من الحضور منتظرًا شفائي.. سأصبر وسوف نرى»، مرت ساعتان وأقبل الليل ودق جرس الباب وسمعت الخادمة تهلل فرحة قائلة: «أهلاً.. أهلاً.. تفضل، الهانم موجودة، ونهضت بسرعة من مجلسي لأستكشف الأمر فوجدته.. إنه هو بأناقته وكبريائه وخجله، وجدته يقف صامتًا.. نظرت له نظرة عتاب، ثم سلمت عليه، ودخلت به حجرة المعيشة وجلست أمامه ألتقط أنفاسي من انفعالي لرؤيته..

هبَّ واقفًا وهو يشير إلى البوكيه ذي الورود الحمراء الموضوع على الطاولة، ثم نظر لي قائلاً: «متي تسلمتِ هذا البوكيه»..

قلت له: «من ساعتين، وأشكرك جدًّا إن كلماته رقيقة ولكني لم أحب هذا البوكيه كثيرًا كما أحببت الوردتين اللتين أهديتهما لي في عيد ميلادي»،

فقال: «أتسمحين»، وذهب إلى الطاولة بجوار النافذة لينظر في البطاقة المكتوبة وفجأة انطلق رعدٌ شديدٌ ودخانٌ واهتزت القاعة هزة قوية، ووقع وزلزال يرج الأرض رجًّا وعاصفة شديدة، طارت الأشياء

من أماكنها.. طارت الستائر والمفارش وطار بوكيه الورد أمامي من النافذة ولم أجد عائد في مكانه.

انقلب كل شيء وخاف كل مَن في البيت، خاصة أختي والخدم.. حدث كل هذا في لحظات وانتهى أيضًا في لحظات.. خرجت مسرعة إلى الحديقة أبحث عن عائد وعن بوكيه الورد في كل ركن من أركان الحديقة، وحول حمام السباحة وساعدني في البحث البواب وموظف الأمن وخادمتي الخاصة..

لكني لم أجد شيئًا مما أبحث عنه. صعدت إلى غرفتي وخرجت إلى التراس لأنظر إلى الجبل ربما أجد عائد في أي مكان بالجبل بلا فائدة..

جلست على حافة السرير أنظر إلى السماء خارج غرفتي فتخيلت أني أري شيئًا غريبًا تقشعر له الأبدان، إن ما تخيلته كان جثتين متلاحمتين لونهما مختلفان الأبيض والأسود وكان الضباب يملأ السماء، فلم أتبين شكلاً لهاتين الجثتين إلا أني أمعنت ونظرت بتركيز شديد وتبيَّن لي أن إحدى هاتين الجثتين كانت لمارد، له شكلٌ رهيبٌ مخيفٌ، كبير الجثة، ذي أنياب طويلة وأقدام يصل طولها إلى أمتار ومخالب حادة متسخة مقززة، كما كانت له عيون حمراء بارزة، يرتدي عباءة سوداء بلون جلده تطير في الهواء تحجب الرؤية عن عشرات العمارات. إنه مخيفٌ مخيفٌ..

صرخت واستنجدت بمَن حولي فأحسست بسرعة بأنَّ السحابة ذات العيون الحارسة الطيبة وكأنها تحتضنني وتطمئنني وتهدئني، ومع ذلك ذهبت في إغماءة.. عندما فتحت عيني وعدت للحياة قيل لي إني في المستشفى في غيبوبة منذ ثلاثة أيام، ويقوم الأطباء بعلاجي وتغذيتي بالمحاليل.

بعد قليل وجدت أبي وأمي وأختي وخادمتي الخاصة حولي يبتسمون فرحين بعودتي للحياة، لكني كنت خائفة موهومة، حزينة، وأشعر بأنَّ أحدًا ينقصني وانتبهت قليلاً.. إنه عائد.. هو مَن ينقصني.. إنه في قلبي وعقلي.

وسألت عنه: «أين هو يا أبي»، فقال: «اهدئي يا ابنتي إنه سيأتي، إنه يحبك كثيرًا، ولكن أظنُّ أن شيئًا قويًّا هو الذي أخَّره عنكِ فصبرًا جميلاً». ابتسمت أمي لي وشعرت بتحسن عندما نظرتْ لي.. وطلبت من الطبيب المعالج التصريح لي بالخروج من المستشفى، فقال في هدوء وود:«لقد أتعبتِني كثيرًا يا ليلى حتى عدتِ إلينا. شدي حيلك وحاولي أن ترتاحي الآن؛ لأن في الراحة فائدة لعقلكِ وقلبكِ حتى تهدأ نفسكِ واهتمي بطعامكِ»، ثم كتب لي دواءً مهدِّئًا.

خرجت في صحبة عائلتي التي اجتمع شملها مرة أخرى وتناسى أبي وأمي كل الخلافات وعادا ليتوليا رعايتي وهم متسامحان آسفان على

تركهما لنا وعدم رعايتهما المباشرة الواجبة في هذه الظروف..

دخلت الفيلا وقوبلت بالحب والود من الجميع.. مكثت أيامًا عديدة وحيدة دون حبيبي الذي لم أسمع عنه أي شيء ولا أعلم أين بيته أو تليفونه أو عمله، إن كل شيء حدث بسرعة وفي غموض.. معرفتي به والحادثتان وحبي الجنوني له وتعلقي به.. كل هذا جعلني لا أمعن في حياته لأعرفه أكثر، وانتظرت وطال انتظاري وطالت حيرتي وأخذتْ الأسئلة تتلاحق في ذهني مَن هو عائد؟ مَن يكون؟

هل هو إنسان هل هو ملاك هل هو في عقلي فقط؟ كيف لقد رآه كل الناس.. رأوه وأحبوه ووصفوه بالنبل والطيبة.. إذًا لماذا يتهرب مني أنا أعلم جيدًا أنه يحبني وقد ضحى مرات بنفسه لينقذني! ما وراءه.. لماذا حزن عندما رأى بوكيه الورد وهو الذي أرسله وما هذه العاصفة التي لم يعلن عنها في أخبار الأرصاد بالإذاعة أو التلفزيون.. نحن في الصيف.. وما هذه الزلازل والأشباح التي أراها والعيون الحارسة؟!

أين ذهب بوكيه الورد الأحمر؟ لقد بحثنا عنه في كل مكان.. حول التراس وحمام السباحة والحديقة.. بحثنا ولم نجده.. هل تبخر هو الآخر؟! أين يذهب عائد عندما يخرج من الفيلا لماذا لا أراه يسير متجهًا إلى بيته. إنه دائمًا يختفى.. إنها أسئلة كثيرة تدور في رأسي.. قمت من فراشي وأنا في إعياء من كثرة التركيز فيما يدور حولي.

كانت الساعة الثامنة صباحًا، ارتديت ملابسي بسرعة ونزلت إلى الاستقبال ودخلت البهو، وهناك على الطاولة بجوار النافذة نظرت إلى موضع بوكيه الورود الحمراء فوجدته في مكانه ينزف دمًا..

سرت إلى الطاولة وأنا في حالة رعب شديد، فوجدت بقعًا كبيرة من الدماء في مكان البوكيه متناثرة على الأرض والنافذة والحائط وخلف أحواض الزرع القريبة من النافذة..

تراجعت وقدماي لا تقويان على حملي إلى أقرب فوتيه. كان هذا الفوتيه مقابلاً للفوتيه الذي كان عائد يجلس عليه آخر مرة عندما كان في زيارتي، يا إلهي لقد نسي منديله الأبيض لأجده في هذا الوقت بالذات وأمسكت المنديل بين يداي وأنا متلهفة وضممته إلى صدري، ثم قبَّلته ونظرتُ مرة أخرى إلى الدماء المتناثرة على الأرض وهممت بأن ألمس الدماء لأتبيَّن هل هي جافة أم حديثة..

وكاد المنديل الأبيض يسقط على الأرض لكني اختطفته بسرعة حتى لا يتسخ من الدماء المتناثرة في كل مكان..

صرخت أنادي على الخادم وسألت: «هل جُرِحَ أحدٌ اليوم أو أثناء غيابي بالمستشفى؟»

فقال الخادم: «لا يا سيدتي نحن بخير» سألته: «ومن أين هذه الدماء إذًا؟»، قال: «أي دماء يا سيدتي؟!».

قلت: «انظر هناك على الطاولة والمفرش والأرض والنافذة»، فنظر الخادم محملقًا في وجهي وقال: «سلامتك يا سيدتي»..

وفرَّ من أمامي! نظرت متفحصة الدماء مرة أخرى وكانت المفاجأة لم أجد شيئًا.. كان كل شيء نظيفًا ومرتبًا وجميلاً كعهدي بخدمي دائمًا. بكيت، بل أجهشت بالبكاء.. إذًا ما رأيته كان وهمًا.. لم أتكلم، بل ذهبت إلى سريري مرة أخرى وارتميت عليه. أهملت نفسي وأهملت عملي ومنذ هذا الحادث وأنا في ذهول وسيطر عليَّ إحساسٌ بأني في حاجة ملحة للعلاج، لقد ضعت، لم أعد كما كنت..

إني أسمع أصواتًا وصراخًا وتهديدًا أثناء نومي.. فهل جننت؟! طلبت أبي لأتكلم معه وحضر متلهفًا خائفًا علي. قلت له سرًّا: «أريد السفر إلى الخارج. أريد العلاج. أريد أن أعود كما كنت، الفتاة المبتهجة القوية التي لا يهمها شيء في الوجود».. أطلعت أبي عما بي وبكى أبي بمرارة وقال وهو يلاطفني: «أمرك، استعدي سنسافر بأسرع ما يمكن»..

طلبت من أبي أن لا يعرف أحدٌ بسفري سوى والدتي.. أعطى أبي الخدم إجازة مدفوعة وصرفهم، وودَّعت العيون الحارسة التي لازمتني طيلة مرضي.. كنت أشعر بها حولي في كل مكان كما أشعر بها في عقلي الباطن.. سافرت إلى أوروبا ودخلت إحدى المصحات النفسية وعولجت علاجًا مكثفًا قام به مجموعة من الأطباء ذوي الخبرات النادرة. مكثت

شهرًا، ثم شهرًا آخر للنقاهة أتنزه وأحاول العودة للحياة مرة أخرى.

شعرت بأني قد شفيت تمامًا. نسيت كل الصور المؤلمة وأخذت من ضعفي قوة ومن حزني خبرة ومن فراق الحبيب درسًا لن يتكرر.. سأمسك زمام نفسي حتى أعود ليلى الجريئة التي لا تعرف الحزن أبدًا.

سأنسى هذا الحب الذي دخل حياتي فجأة وخرج منه فجأة. قبل عودتي إلى بلدي بأيام ذهبت للمتابعة مع طبيبي المسؤول عن علاجي..

جلست أتحدث معه، كان شابًا قوي الإرادة، في حديثه جرأة كبيرة، تكلم معي عن هواجسي ورؤيتي الأشياء التي لم أجد لها تفسيرًا، كان يحمل كلامه تحديًّا لعقلي وتحديًّا لموقفي، وكأنه يعطيني علاجًا بنبرة صوته. كأن نبراته حينذاك سياطًا يجلد بها عقلي ليفيق ولا يستسلم، لقد تعودت على هذه الجلسات العنيفة الجريئة.. وضع طبيبي هذا يده على مَواطن الألم، ونجح في علاجي وشفائي ومسح دموعي وأعطاني من قوته قوة..

وجاءت لحظة الوداع، فأمسك يدي وشد عليها قائلاً: «إياكِ والاستسلام عودي للحياة.. اجري، العبي، اضحكي فالدنيا ما زالت بخير. ابتسمتُ له، فقال لي : «إنكِ مرشدة سياحية فهل تتكرمين وتسمحين لي بأن أزورك لأرى مدينتك؟»

قلت مرحبة: «إنَّه شرفٌ عظيمٌ أن تزورني».. ونظر في عيناي نظرة

طويلة فهمت مغزاها، فقلت: «تأكد أني قوية، وتأكد أني سأفكر بك ولن أنساك»، فقال: «أنا جاهز يا ليلى فقد أحببتكِ ونريد أن نسعد العائلة بأحفادنا لو قبلتي الزواج مني»، فأجبته بسرعة: «دع الأيام تظهر ما تخفيه لنا واطمئن ستجد الإجابة المناسبة عندما تحضر لزيارتي وتأكد أني عدت ليلى القوية».. فنهض وقبَّل يدي وشكرته لكل ما فعله من أجلي. عدت مع أسرتي إلى بلدي فرحة بعودتي..

فعلاً أنا أصبحت قوية مرة أخرى. قبلت خدمي وأهديت كل واحد منهم هدية جميلة تليق بصبره وعمله ورعايته لنا.. فرح الجميع واجتمع الشمل مرة أخرى، وبعد أيام قليلة دق جرس الباب وسمعت الخادمة تصرخ فخرجتُ مسرعة إليها فوجدته.. وجدته.. إنه الشاب الوسيم إنه عائد..

إنه الحبيب الذي شفيت من حبه. إنه الإنسان الذي غيَّر مجريات الأمور كلها في لحظة.. إنه الشاب الذي أحببته وكرهته وتمنيته، إنه الشاب الذي ألهب عواطفي، ثم تركني حائرة ولم يكلف خاطره أن يسأل عني..

قابلته ببرود وتمالكت نفسي وضغطت على كل خلجة من خلجات جسدي وأمسكت بنبضات قلبي، استحلفها أن لا تسرع، وحبست الصرخة في حلقي حتى باتت تخنقني...، ثم قلت بصوت غير مسموع

تفضل، وتقدمت أمامه وجلسنا في حجرة كبار الزوار كأول لقاء بيننا.. كان شاحب الوجه وأنامله كالثلج.

جلس أمامي وقال: «هل تسمحين أن أوضِّح لكِ أمرًا، وأُكمل قصتي.. عندما هربت منك في أول مقابلة ولم أكمل حكايتي أتذكرين؟»، قلت باقتضاب: «أكمل من فضلك»..

قال: «ليلى، رجاء أن تتماسكي لقد حضرت اليوم لأبوح لكِ بسرٍّ خطيرٍ تهتزُّ له القلوب وتقشعر له الأبدان، وانتظرت عليكِ حتى تشفي من حبي وتصبحي كعهدي بكِ قوية الإرادة وتضعي الأمر في نصابه، أنا أعلم أنكِ سافرتي لأوروبا وأعلم أين كنتِ بالتحديد.. واسم المستشفى والأطباء الذين عالجوكِ والمدة التي مكثتِ فيها تحت رعايتهم. أنا أعلم أنك تضغطين على أعصابك الآن وتحبسي الصراخ في صدرك، أنا أعلم أن وجودك في المصحة أمرٌ لا يعلمه مخلوق سوى والدك ووالدتك وأختك».

بُهِتُ وتسمَّرت في مقعدي.. كيف علم كل هذا هل يتجسس علي؟ وإذا كان فهل يتجسس أيضًا على مشاعري؟ فجأة قلت له: «مَن أنت بحق الله»، قال: «ستعرفين كل شيء.. أتذكرين قصة خطيبتي التي توقف بنا الحديث عند ذكرِي لكِ أنها ماتت وتركتني وحيدًا في الدنيا.

لقد بكيت وخرجت مسرعًا وقتها ولم تجديني وبحثتِ عني في كل

مكان من التراس الخاص بحجرتك وحول حمام السباحة وفي الحديقة وسألت نفسكِ أين ذهب يا ترى؟».. ولم أقوَ على الرد: «يا إلهي إنه داخلي يراني في كل الأوقات. إنه ليس بشرًا والله ليس بشرًا». نظرت له ولم أنبس ببنت شفة..

قال: «إني بعد حادث خطيبتي مرضت من أجلها أيامًا كثيرة ومنعت نفسي عن الطعام والشراب وأحضرت لي والدتي شيخَ الجامع وبعض الشيوخ من علماء الدين وعلموا بموت حبيبتي وكانوا يقرؤون لي القرآن ويقصون عليَّ مواقف من الإسلام لتقويني على ما أصابني، حتى هدأت نفسي، وسكن فؤادي، وعاهدت نفسي أن أذهب إلى نفس المكان الذي كنتُ أنتظرها فيه كل ليلة عند مطلع الجبل إكرامًا لذكراها..

وفي ليلة سوداء حالكة ذهبت ووقفت في المكان الذي رأيتِني فيه عندما أنقذتكِ أول مرة، وبكيت بشدة عليها ولم أسمع كلاكس السيارة القادمة من شدة استسلامي للحزن لموتها فدهمتني في الحال وارتميت على الأرض بمطلع الجبل أنزف من كل جسدي ورجوت الله وأنا أُحتضر أن يكشف لي سر هذا المكان اللعين الذي تكثر به الحوادث والمصائب.. وقلت يا ربي لا تأخذني ولا تميتني قبل أن أعرف هذا السر وأخلص باقي البشر من هذه اللعنة»..

وسكت، ثم قال: «نعم أنا روح الشاب الذي دهمته السيارة»، وسكت

مرة أخرى، ثم نظر إلى قدميه.

تسمَّرت في مكاني ووجدت نفسي أتكور في مقعدي وشعرت بصغر حجمي وتقلصت كل خلجات جسدي وزاغت مقلتاي في محاجرهما وسمعت دقات قلبي كأنها طبولٌ مزعجة تكاد تخرق أذناي دب لاب.. دب لاب.. إنه قلبي يريد الخروج من صدري، من بين ضلوعي، حتى ولو حطم هذه الضلوع التي باتت تؤلمني. إن هذا القلب يريد أن يزيحها ويفسح مكانًا ليخرج ويبتعد عني، لكن كيف لقلبي الخروج وبه كل هذا الحب لعائد. إن المفاجأة أذهلتني.. أقعدتني

إني أصرخ دون صوت، أبكي دون دموع، أرتجف دون حركة، يا إلهي إنه روح ورفعتُ يدي ووضعتها فوق قلبي المسكين وضغطت بكل قوتي أستحلفه أن يظل في مكانه، وتصبب العرق من جبيني وشعرت بالبرد والخوف.. همست بضعف.. بردانة بردانة وبسرعة كعادته دائمًا ألقى عليَّ بمفرش كبير واحتضنني بقوة شديدة وأنا مستسلمة ولفحتني أنفاسه اللاهثة فأدفأتني.

واستطرد قائلاً: «اهدئي يا ليلى، أرجوكي تماسكي واستعيني بالله، أنا هنا لأقدِّم لك كل ما أملك من تضحيات لأحافظ عليكِ وأرعاكِ. لقد تخيرت هذه اللحظة بالذات لأكشف لكِ عن نفسي بعد ما تأكدت أنكِ عدتِ ليلى القوية المثقفة المؤمنة التي إذا عاهدت وفت بالعهد، وإذا

أحبت ضحت بكل ما تملك، وإذا تكلم أحدٌ معها كانت مستمعًا جيدًا له».

ثم مدَّ يده وأمسك بهما يداي وضغط عليهما برفق حالم حاني ونظر في عيني فأخذت نفسًا عميقًا طويلاً زفرت معه كل ما بداخلي من خوف، وساد السكون بيننا دقائق..

قلت: «اعذرني، فهذا آخر ما كنت أتوقع. إن المفاجأة أذهلتني كانت أكبر مني، وما أنا إلا بشر»، وسالت دموعي تغسل فؤادي ووجنتاي. قال عائد: «نحن جميعًا من صنع الله سبحانه وتعالى وأجسادنا ما هي إلا قشور لأرواحنا الطاهرة».

ابتسمت له في هدوء، ثم قلت: «رجاء أن تكمل وأن تحاول توضيح كل شيء حتى أقنع نفسي بحقيقتك ولو أني أعرف أنك دائمًا لا تنطق إلا الصدق، وسوف أكون مستمعة جيدة كما تريد.

فكمل حديثه قائلاً: «لقد توفيت بعد دقائق من الحادث واستجاب الله لدعائي، فأثناء صعود روحي من جسدي رأيته.. كان ماردًا متوحشًا قبيحًا متسخًا، أسود يرتدي عباءة سوداء، كان عملاقًا يقف تحت الجبل ورأسه فوق الجبل.. كان فظًا كريهًا مخيفًا».

وسكت برهة وقال: «لقد رأيتِه أنت يوم الزلزال، والورود الدامية التي أرسلها لكِ.. إنها منه وليست مني، تلك الورود التي كتب عليها

أنكِ له مهما طال الزمان. أنا لم أرسل لك هذه الورود، ولذلك تجمدتُ في مكاني عندما رأيتها وقرأت ما كتبه عليها.. لقد كان يهددكِ فهو يريد قتلك وكان يتوعدكِ بهذه الكلمات. لقد حاول قتلك أكثر من مرة لكني أنقذتكِ منه».

كنت أحدق به وكأني أسمع قصة من عالم الخيال أو أشاهد فيلمًا للخيال العلمي، ومع ذلك صدقته فكل ما قاله صحيح كيف علم أني رأيت هذا الشيطان اللعين. إذًا لم أكن مريضة.

كانت هذه الأسئلة كلها تدور في نفسي ووجدته يرد عليَّ: «نعم لم تكوني مريضة أبدًا فكل ما رأيتِه كان صحيحًا.. كنا نتقاتل أنا وهو من أجلكِ.. كان هذا هو الزلزال والعاصفة.. كنا اللونين الأبيض والأسود متلاحمين يقتل بعضنا البعض من أجلكِ.. هو يريد ذبحكِ وأنا أريد نجاتكِ.. أنا يا ليلى العيون الحارسة.. هل بحتِ بهذا السرِّ لأحد.. طبعًا لا.. إنها عيناي اللتان كانتا تحومان حولكِ، كنت أحرسكِ منه، كنت أدافع عنكِ. إنه الشيطان اللئيم الذي صمَّم على قتلكِ لأنَّ له ثأرًا عندكِ ويريد أن يأخذه منك.. هذا ما جعل أموري تضطرب، فقد أجهدني كثيرًا وقد قاومته لأحميكِ الليل والنهار وكان همي وحزني هو مرضكِ واهتزازكِ وفقدانكِ ثقتكِ في نفسكِ، لكن آن الأوان لتعرفي كل الحقائق وأيضًا تعرفي أني كنت أرسل لك من خلال عيوني حبي وأشواقي».

قلت بسرعة: «نعم إنه أنت إنها تشبه عينيك، يا إلهي كيف لم أدرك أنهما عيناك؟!»، فابتسم وقال: «ألم تطمئني عندما كنت تنظرين إليهما؟!» قلت: «نعم.. كانتا ملاذي عند خوفي، ودفئي عند بردي، وسكني عند هروبي، وعزوتي في وحدتي»، قال: «ها أنتِ الآن والحمد لله صدَّقتِ. أنا ما تركتك أو هجرتك أو كرهتك ولكنها الأقدار.. لقد أحببتك فعلاً لأني ما عرفت الكره يومًا، فمن كان مثلي لا يعرف سوى السلام. هل تذكرين أول حادث عندما قلتُ لكِ هيا أوصلك للفيلا وقلت أنتِ في عقلك يا إلهي كيف عرف أني أسكن في فيلا وليس في بيت».. وابتسمت له وقلت: «إنك روح كريمة معذبة وسيفعل الله الخير حتى تستكين».

هدأت نفسي ووثقت بعقلي وشعرت بأني ما كنت لحظة مهزوزة أو مريضة لقد كان كل شيء تحت سيطرتي النفسية لكن لم يكن عندي التفسير. أكمل عائد القصة قائلاً: «عندما صدمتني السيارة وأنا في حشرجة الموت نظرت حولي فوجدته.. شيطانًا.. ماردًا.. فظًّا.. رهيبًا. سألته لماذا تقتل الأبرياء وترمِّل الأمهات وتزيد عددهم وتخطف البسمة من شفاههم ألا تكتفي؟! ماذا فعل لك البشر لتكون بهذه الفظاظة والعنف؟».

صاح الشيطان المارد صيحة عالية رجَّت الأرض وأخرجت ترابها ورملها في الهواء فحجب الرؤية لدقائق، ثم قال:

«إن البشر لعنة عليَّ وعلى أولادي. إنهم أكثر من الشياطين، يفعلون كل ما يحلو لهم، يتسابقون بسياراتهم فوق الجبل في الصعود والنزول، يضحكون ويشربون الخمر داخل سياراتهم، يخطفون السيدات والبنات ويعتدون عليهن يهربون، تاركين جرائمهم وراءهم.. يسرقون بعضهم ويعتدون على بعضهم، إنهم يمرحون بالليل ويفسدون حياتنا ومنامنا وكأن الأرض وما عليها ما خلقت إلا لهم.. لا يبالون بأن بالحياة مخلوقات غيرهم..

إنهم يقفون في الظلام يدسون لبعضهم المخدرات، يصرخون ويصفرون ليفسدوا آذاننا وآذان أولادنا الصغار. لقد كرهتهم وأقسمت أن أذيقهم العذاب، خاصة الذين يصعدون الجبل ولا يكترثون لاحترام الليل وسكنه إنهم يستحقون كل ما يحدث لهم.

لقد عاهدت نفسي أن أقتلهم وأحرق سياراتهم وأدفع بها من فوق الجبل.. كل مَن أجده مستهترًا بالحياة على الأرض سينال أبشع الجزاء فلا يهمني عجوزًا أو شابًا أو شابة فهم جلبوه لأنفسهم. أنا سيد المكان أنا الشيطان الأعظم. إني حزين.. لقد قُتل طفلي، جني بريء دهسته سيارة وطفلي الآخر أُصيب بالصمم من الأصوات الصاخبة والموسيقى العالية التي لا تهدأ ليلاً ولا نهارًا.. إن مَن يفعلون هذا ليسوا بشرًا إنهم وحوش»..

وأخذ يئن ويتلوى ويشير بقبضته في الهواء، لكني استوقفته وبهدوء قلت له: «إن كل الأعمال التي وصفتها لي من الخمر والمخدرات والتعدي على النساء والاستهتار بمَن يعيشوا حولنا من الكائنات التي لا نراها، والسرعة الجنونية في قيادة السيارات كلها من أعمال الشيطان. أنت وأمثالك توحون لهم بذلك..

وعليه يجب أن تكون سعيدًا لا أن تكون حزينًا متوعدًا بالانتقام والقتل وسفك الدماء لأنهم يتبعونك.. يتبعون عدو الله، أنت وأمثالك. أما حادثة ابنك الذي قُتل ودهمته السيارة ما هي إلا حادثة تحدث للبشر كل يوم فهذا قدر الله.. والذي أصابه الصمم من الصوت العالي أيضًا حادثة وليس كل البشر مستفزين مفزعين، ثم ماذا فعلت لك خطيبتي إنها ملاك بريء لا حول لها ولا قوة.. عائدة للمنزل مع سائق السيارة الخاصة بعملها بعد يوم شاق مضني فما الذي أغضبك؟! ماذا فعلتُ لك أو لأولادك. إني شاب في مقتبل العمر في حالي ليس عندي سيارة ولا أذكر يومًا أني أزعجت أحدًا أو تناولت مخدرًا أو شربت خمرًا أو أي شيء من هذا القبيل؟».

فرد اللعين: «إني أوسوس للبشر ولكن للبشر طريقان، طريق الخير وطريق الشر، فمَن تبعني تبع الشر فأنا أساعده بلا حساب وأسهِّل له كل معصية. السرقة، شرب الخمر، النساء كل، المحظورات، ثم أقتله

إما بالإعدام صحيًّا أو نفسيًّا أو ماديًّا وإما بسفك دمائهم، فهم قد اختاروا ولا لوم عليَّ. أما حادث خطيبتك فسائق السيارة هو مَن قتل ولدي، فألقيت به من فوق الجبل وحرقت سيارته هو ومَن معه. وأنت..

فشخصيتك الضعيفة وبكاؤك طول الليل في الظلام تنتحب تارة وتصرخ تارة أقلق راحتي وراحة أولادي إن سكون الليل هو سعادتنا ويقلق راحتنا الضجيج، فأنت لست الشخص الوحيد الذي قُتلت محبوبته، لذا تخلصت منك وسأظل أنتقم من البشر كل يوم».

فقلت له: «لا.. لن تفعل ولن أتركك تؤذي أحدًا بعد الآن. وأقسمت وأنا بين يدي الله أن لا تهدأ روحي حتى أحرقه وأجعله عبرة لكل شياطين الأرض أمثاله».. لكنه ضحك مستهزئًا فقلت سوف ترى.

منذ ذلك الحين وأنا متربص به أفسد كل عمل يقوم به، أنقذتكِ منه مرتين على الجبل وأنقذتكِ في المرة الثالثة عندما أرسل لكِ الورود الحمراء وتخيلتِ أنتِ أن بطاقته التي كتب عليها «أنتِ لي» مني أنا.. لكن هذه الورود الحمراء كانت أولاده والدماء التي وجدتِها هي دماء ابنه القتيل، إنها كانت موجودة بالفعل لكنكِ وحدكِ يمكنكِ رؤيتها، وعندما ناديتِ الخادم ليزيل الدماء..

محوتها أنا بسرعة حتى لا يراها خدمكِ فيخافوا من المكان ويتركوك وحيدة ويفروا، وعندما سقط منديلي الأبيض وأخذته بسرعة

كنت أشغلك حتى أزيل الدماء من على الأرض. لقد هاجمك في عقلكِ، في منامكِ. لقد صوَّر لكِ اللعين في منامكِ أحلامًا مفزعة وأسمعكِ صوت الجني الصغير وهو في حشرجة الموت ليفقدكِ عقلكِ. قلت: «له لماذا أنا يا عائد.. أنا ما فعلت له شيء!».

رد بسرعة: «إنكِ مدرجة ضمن الذين يريد الانتقام منهم بسبب موسيقاكي العالية في منتصف الليل وفي نظره هذا استهتارٌ به كما علمتُ لأن سكون الليل ووحشته هي مملكته.. أحب أن أوضح لكِ أنه أثناء تشاجرنا وأجسادنا متلاحمة يوم أن أرسل لكِ الورود الحمراء.

سألته لماذا يريد قتلك؟ قال: إنكِ من أطرش ابنه وأنتِ من تؤذين أذنيه فتربص بكِ ووعد بقتلكِ وسيقتل كل مَن هم على شاكلتكِ.. لذا أوحيت لكِ ولأبيك أن تسافري بسرعة لأبعدكِ عنه وأستعد لأنتهي منه بالعديد من الآيات القرآنية، وظللت أرددها لتكون سلاحي أمامه لأحرقه وأعوِّد نفسي على قراءتها دون توقف حتى أتمكَّن من القضاء عليه وعلى كل أولاده وأعوانه وأتباعه. لم تكوني أبدًا مجنونة فكل، ما رأيتِه وشعرت به كان صحيحًا لكن الوقت كان لم يحن للانقضاض عليه، فانتظرت حتى حانت الفرصة المناسبة وداهمته عند مطلع الجبل وفاجأته بالآيات الكريمة قبل أن يأتي مَن يرث مكانه أو يهرب هو إلى مكان آخر.

لقد أحرقته آيات الله الكريمة وقضت على حياته وحياة أولاده. لقد أنهيت حياة الشر وخلصت البشر منهم جميعًا. أصبح الجبل نظيفًا ولن يضايقكِ بعد ذلك أبدًا ولن تمرضي بعد الآن ستكونين حرة..

لكن عليكِ بالهدوء واحترام الأرض لأنَّ بها مخلوقات غيرنا. قودي سيارتك والتزمي بالسرعة المقررة واسمعي موسيقاكي بصورة تجعلكِ سعيدة ولا تقلقي غيركِ لا من البشر ولا من غير البشر. لي أمنية عندك يا حبيبة فؤادي انصحي الناس. افعلي شيئًا من أجل أن يعم الهدوء كل الجبل، قولي للشباب المستهتر مَن يتبع الشيطان فمصيره الموت أو الجنون والقتل والمرض.. قولي كلمة للأمهات بأن يتفانين في تربية أولادهن وعلميهن الفضيلة والدين أنتِ معكِ المال ووالدكِ له كلمة مسموعة فاسعدوا الناس يسعدكم الله.

تأكدي يا ليلى أني أحبك وما تخليت عنك منذ تقابلنا فعيوني ستظل في عقلكِ تحرسك، وسوف أصعد أنا الروح الطاهرة إلى المكان الذي تأخرت عنه كثيرًا لأنَّه كان وعدًا.

ليلى أستودعك والداي ووالدة خطيبتي- رحمها الله- فهم فقراء، ساعديهم وراعيهم من أجل عائد كريم. لا تفقدي ثقتكِ في طهارتك، فحمايتكِ وتطهير الجبل كانا أعظم الأشياء التي فعلتها طيلة حياتي كما أني أسعدتك بإعادة والدتك ووالدك إليكِ وهذا أكمل فرحتكِ. دعيني

أوضح لك أنَّ اسم عائد كريم هو اسم عملي الذي أنا هنا من أجله، أما اسمي الحقيقي فهو هشام شمس الدين، ومن أجل ذلك عندما بحثتي عني في الجبل أثناء غيابي لم يتعرَّف أحدٌ على اسم عائد كريم».

تخيلت أني اندفعت إليه بلهفة، بل بكل اللهفة، وارتميت في صدره فضمني بقوة واحتضنته يداي، وتمنيت أن أكون معه إلى آخر العمر تمنيت أن أموت لتصعد روحي معه..

أغمضت عيناي وأنا أنام على صدره وشعرت بنفسي تذوب به. شعرت بدمائي تجري في عروقه وأنفاسي تحتضن هواء صدره تغلغلت في كيانه، وأحسست بصبره وعشت في خلجاته ارتشفت الحب بكل قوتي وتذوقت المعاني الجميلة في صبره..

إنه أنقى حب في الوجود. إنه شهد الحنان وحلاوة النقاء واللقاء. قبَّلته قبلة طويلة أذابت روحي وكأنها تودِّع روحه.. ذاب جسدي وتجمدت أطرافي. إنه حضن الوداع. وضعت في قبلتي له كل معاني العشق والعرفان بالجميل، ثم قلت له: «أشكرك، أشكرك على كل ما فعلته وقدمته لي من تضحيات، وللبشر من أمن وأمان، لك الله ولتنعم في جنة الخلد. اطمئني يا أيتها الروح العائدة إلى سكنها.. ولتهدأ نفسك فسأكون كما تمنيت وسأرعى والديْك ووالدة خطيبتك وكل مَن يحتاج للمسة حنان..

سأقاوم الجهل وأحارب الإدمان والفساد، وسأغسل عقول الشباب من الوهم، وسأنير عقول الأمهات بالخير ليربين أولادهن وبناتهن كما تمنيت أنت. سيضاء الجبل وتفترش بالنور كل حبة رمل وحفنة تراب تغطي هذه الأرض الطيبة وعندي من المال ما يكفي».

وفجأة صرخت بأعلى صوتي صرخة هائلة وتقلصت أحشائي وخلجاتي وجف حلقي وارتجف جسدي فمع آخر كلمة تفوهت بها اختفى عائد كريم.. اختفى إلى الأبد واندفعت أسرتي من البهو القريب من الغرفة فقد سمعوا معي كل القصة من فم الشاب..

ألقيت نفسي بين أحضانهم واحتواني حب أبي وعطف أمي وواسوني بكل الحنان، وشد أبي على يدي، ثم قال: «أين ليلى التي فاقتنا فراسة وملاحظة وذكاء أنتِ أقوى من كل هذا يا ابنتي، تمسكي حتى تهدأ روح عائد كريم. تماسكي لتسعديه في مثواه».

«بعد هذه التجربة العنيفة سأكون ليلى القوية يا أبي وستساعدني في الوفاء بكل ما أقسمت لحبيبي أن أفعله كما أوصاني».

فرد أبي بحزم وعزم: «سأكون أنا ومالي وممتلكاتي تحت أمرك يا ابنتي لنلبي رغبة هذه الروح الطاهرة، وسأكلف أعظم الفنانين

والمهندسين بأن يشيِّدوا لهذا الشاب الوفي تمثالاً من أنفس المعادن يوضع في المكان الذي صعدت فيه روحه بأعلى الجبل عرفانًا بجميله على البشر».

في اللحظة الحاسمة دخل طبيبي الذي عالجني واحتواني ورعاني وأمسك يدي قائلاً: «لقد جاءني أنا الآخر، وأوصاني بكِ وكأنه يبكي متوسلاً ألا أتركك أبدًا.. وقلت له وبأنفاسي المتلاحقة أأنا أترك ليلى؟! إنها أصبحت حياتي التي أتمناها وها أنا هنا حضرت إليكِ مسرعًا وعندما رأيتُ عائلتكِ تواريت لأضمن لكم دفء الموقف واحترامه وسأقف معكم جميعًا في كل ما نويتم عليه من أعمال في إنارة الجبل وتقديم الخير وسأنشئ مستشفى لعلاج الحالات المستعصية وأكون أنا المسؤول عن تقديم كل المساعدات لِمَن يريدها، وبعد أيام سأنتقل إليكم لأكون معكم».

ونظر إلى أبي وقال: «يسعدني أيها الرجل الكريم أن تكون ابنتك زوجتي.. فما رأيك؟». فرح كل الموجودين... ولكني سكت، ثم تقدمتُ إليه وقلت له: «أيسمح طبيبي بإعطائي فترة نقاهة حتى أخلي ما بقلبي ليتمكن من احتوائك».

قال طبيبي: «أكيد وسأظل معك وستكونين أمًّا لأولادي، وأسمي ابني الأول عائد وابني الثاني كريم».

واستعد والد ليلى لعمل التمثال لعائد كريم أو شمس الدين وعرض على أهل الجبل والمسؤولين مشروعًا كبيرًا لتطوير المنطقة بالكامل وتحديثها وتجميلها، ووجد من الجميع الترحيب والرغبة الأكيدة في المشاركة، وساعدت الحكومة في الإعداد للمشروع بالتصميمات المناسبة، واقترح المهندسون إقامة تليفريك ينقل الزائرين إلى أعلى الجبل في المكان الذي سيقام به التمثال، وتولت الحكومة استكمال التمويل اللازم.

كان سكان الجبل يدًا واحدة في هذا الإبداع، الكل يجري ويسابق ليزيل حجرًا أو يلصق لوحة أو يرسم رسمة أو يساعد في تنظيف طريق، وكانت زوجاتهم في البيوت تطهين الطعام ويرسلنه للعاملين بأماكن عملهم، ومنهن من ترسل زجاجات الماء والشاي والقهوة ومنهن مَن ترسل الحلوى والفاكهة. كان الجميع يشعرون بأنَّ ما يتم أمر مهم لكل واحد منهم، وكلما تم عمل يغني الجميع أغاني وطنية جميلة وأغاني عاطفية رائعة، حتى تلاميذ المدارس كانت كل مدرسة ترسل تلاميذها ليتعلموا التعاون والانتماء لأرض بلادهم وحب وطنهم.

اهتم المشروع بإقامة أسوار على الأماكن الخطرة من الطرق بالجبل وأنشؤوا لها الأسوار للحماية من الحوادث. أنشئ نادٍ يضم أنشطة الرياضات المختلفة، وضم النادي مكتبة جميلة وعددًا من الصالات

واهتم الجميع بإنشاء دور العبادة اللازمة للقادمين للإقامة وتعمير المكان، وابتدأ العمال في تثبيت التمثال فوق قمة الجبل، ورغم المخاطر الشديدة إلا أنهم وضعوه في المكان المناسب وأُقيم حفلٌ عظيمٌ جاء له الجميع من كل مكان ليزوروا الجبل ويشاهدوا الإبداع الذي تحقق من رصف الشوارع، وتنظيم المرور، والتعاون الكبير بين سكان المكان والقائمين على المشروع. الجميع مبتسم لأن الانتصار على الظلم شيء عظيم يفرح قلوب البشر.

دبت الحياة في الجبل وتدفق الزائرون من جميع أرجاء الوطن بعدما اهتم الإعلام بنقل الصورة الرائعة للاهتمام والتعاون وحتى السائحين القادمين من الخارج حضروا للزيارة وبنيت المباني الجميلة وأُضيئت الشوارع وأُنشئت المحلات، وبدأ العمران يملأ المكان بسكان جدد ومدارس ومطاعم، وحَّد المشروع أهل الجبل وأصبح الجميع يدًا واحدة. الغني بجوار الفقير، الغني يساعد بماله، والفقير يساعد بالعمل والجهد، والتف الشباب حول المشروع وكلما انطلق الأذان للصلاة كانت «الله أكبر» تزلزل الوجدان ويسارع الكل للصلاة والدعاء أن يطهِّر الله المكان من الشر والقتل وسفك الدماء، ولقد راعى مصممو ومنفذوه المشروع وضع لافتات في مدخل الجبل لإرشاد القادمين لعدم استخدام آلات التنبيه والقيادة على سرعات هادئة، وحددوا غرامة مالية لمَن

يخالف هذه التعليمات، كما حملت هذه اللافتات واللافتات الممتدة على طول الطرق بالجبل آيات القرآن الكريم والأدعية من كل الأطياف أن يحمي الله المكان من كل أنواع الشر والأذى.

ذات ليلة بعد مرور سنوات قليلة على استكمال المشروع واستتباب الأمن والهدوء بالمكان دق جرس الفيلا وكان الزائر هو د.عبد الرحمن طبيب ليلى وبيده علبة كبيرة ووجه مملوء بالبِشر والسعادة واُستقبل بترحاب كبير وعظيم. كانت ليلى بشوسة على وجهها ابتسامة عريضة، وقال د.عبد الرحمن: «ليلى وحشتيني جدًّا جدًّا. عاملة إيه وإزي صحتك وأحوالك». ردت ليلى: «أنا زي الفل ونسيت كل ما كان»، ثم قدمت له القهوة والحلوى، وتوافد أفراد الأسرة يتتابعون الواحد تلو الآخر وجلسوا جميعًا يتسامرون والكل يحكي ما يحلو له وتتعالى ضحكاتهم.

قالت ليلى لعبد الرحمن: «ماذا في هذه العلبة»، فرد قائلاً: «العلبة بها الرسم والتصميم الهندسي لبيتنا الجديد»، قالت الأخت الصغرى: «ده البيت نفسه يا ليلى»، وضحك الجميع للنكتة، حيث كانت العلبة كبيرة فعلاً ورد الطبيب: «معنى ذلك أنكِ وافقتِ على الزواج»، فردت ليلى: «أحسنت الاستنتاج»، وطار الجميع من الفرح، فقام د. عبد الرحمن وفتح العلبة ودوت الزغاريد وكتمت ليلى صرخة الفرح بوضع يدها على فمها لقد كانت العلبة تضم فستان الفرح الأبيض والطرحة

التل الشفافة التي يتدلى منها زهرات الفل، والورد الأبيض وحذاء الفرح وعلبة كبيرة بها أدوات زينة العروس كاملة.

خطفت ليلى الفستان وهرعت إلى حجرتها وارتدته ووضعت الطرحة على شعرها وفجأة تذكرت عائد، فجلست على حافة سريرها وأمسكت رأسها بيديها وبكت بصوت خافت ونادت باسمه: «عائد يا حبيبي وحارسي الأمين وحشتني»، ثم انتفضت في جلستها وخلعت الطرحة التل البيضاء وقالت إنه في رعاية الله ورحمته، وقرأت له الفاتحة بصوت هادئ..

وفي الحال جرت إلى البلكونة ونظرت إلى السماء ووجدت العيون الحارسة.. إنه هو.. عائد كريم، وأحست وشوشةً في أذنها: «مبروك يا ليلى. لا تنسي الوعد أول طفل سيسمى عائد، والثاني كريم، أو العكس كما ترين»، وابتسمت ليلى وقالت: «لن أخلف الوعد أبدًا»، وقرأت آيات من القرآن الكريم.

نزلت ليلى إلى البهو وهي مبتسمة مرحبة بعريسها ووُضع الطعام في غرفة الطعام الكبيرة وتناول الجميع طعامهم في هدوء احترامًا لشرود ليلى المفاجئ.

قال عبدالرحمن: «لقد حدث تقدمٌ كبيرٌ وأصبح الجبل صورة رائعة من الجمال والعظمة»..

ردَّ الاب قائلاً: «الحمد لله وسيتم افتتاح المستشفى قريبًا»، فرد عبد الرحمن: «بعد شهر العسل بإذن الله يا عمي لأني سأسافر أنا وليلى إلى بلاد الهند»، وضحك الجميع وقالت الأم: «لماذا الهند يا دكتور»، رد عبد الرحمن: « إنها رحلة رائعة نبحر فيها في سحر الطبيعة والخيال وبها أيضًا البخور والعطور والتوابل من أنقى ما يكون». قالت ليلى: «ماذا سنفعل بالبخور أنسافر للهند من أجل البخور»، فقال عبد الرحمن: «ولأنهم هناك لا يعرفون اللغة العربية، فلو تعصبتِ وقلتِ لي شيئًا لن يفهمه أحدٌ إلا أنا».

وانطلقت ضحكات الجميع وبدا الكل يقبِّل ليلى ويهنئها، بينما كانت ليلى تضحك فرحة بصوت مرح لأنَّ عريسها يحاول إسعادها، واستمر الضحك والسعادة يملآن المكان.

وقال عبد الرحمن: «لقد اخترت الهند لسبب آخر فاختيار الهند جاء من أجل نوران شقيقة ليلى، ففي الهند تقدم في تخصص العلاج النفسي، وسأعرض نوران على أحد كبار المتخصصين من أصدقائي، حيث إني أرسلت له التحاليل والآشعة التي أخذتها من نوران بعدما طلبت منها ألا تخبركم حتى لا أشغلكم عن رعاية ليلى واهتمامكم بها في هذا الوقت.

وجاءتني النتائج من صديقي مبهرة فشلل نوران ليس مرضًا عضويًا

وإنما هو حالة نفسية، والعلاج وتغيير الجو سيفيدها جدًّا وبالفعل جاءتني الدعوة لزيارة الهند بلاد الطبيعة الخلابة والثعابين الراقصة والفيلة والأسود والنمور والشعب الطيب، إنها الهند بلد العجائب.

سنسافر جميعًا أنا وليلي ونوران وأنتم. لقد رتَّب لي صديقي حجز الأماكن وسنسعد ليلى ونوران بكل شكل من الأشكال، وعندما زارني عائد من أجل أن يوصيني على ليلى شرحت له موضوع الرحلة إلى الهند، فقال لي ستتحسن نوران بإذن الله وأنا أراها تمشي أمامي وفرحت بهذا فسيفرحنا جميعًا وليس ليلى ونوران فقط.

قالت ليلى في نفسها: «إنه في نبل عائد وحنانه وطيبته. إن الله على كل شيء قدير».

أُعدَّ حفلُ زفافُ كبيرٌ في نادي الجبل وبين الغناء والرقص والطبل والزمر والطعام الشهي بكل أنواعه سعدت الأسرة سعادة كبيرة، وبعد الحزن جاء الفرح، وبعد العسر جاء اليسر بفضل الله سبحانه وتعالى وتم الزفاف على خير ما يكون، وفي نفس الأثناء أقام والد ليلى وليمة كبيرة للفقراء وأطعم الجميع ولأنَّ الشتاء كان على الأبواب فقد وزَّع عليهم ملابس شتوية كثيرة وأحذية وأطعمة مختلفة مما جعل الجميع يتوجهون بالدعاء للأسرة بالسعادة.

في اليوم التالي كانت الأسرة بجميع أفرادها في المطار لاستقلال

الطائرة إلى الهند، وتمت الرحلة على خير ما يرام حتى وصلوا إلى المكان الذي أُعدَّ لهم، وبعد الاستقرار والراحة نزلوا ليتجولوا في شوارع المدينة الهندية الجميلة وشاهدوا المحلات مملوءة بالمشغولات النحاسية وروائح البخور منتشرة في الأجواء، وشاهدوا أغطية الوسائد المصنوعة من الخيوط الذهبية ومبطنة بأنواع من القطيفة السوداء أو الحمراء أو الزرقاء الناعمة، ولاحظوا أن مشغولات السيرما هذه من أجود الأنواع. هي بالفعل غالية الثمن لكنها جميلة جدًّا ولا تقاوم ومَن يزور الهند لن يستطيع أن يقاوم شراء هذه المشغولات الرائعة المنسوجة بخيوط ذهبية، ومما لفت نظرهم العاج الحر من سنِّ الفيل بأحجام كبيرة لها العجب، والمُصنَّع منها التماثيل المنقوشة على هيئة تحف، وفي بعض الأزقة الضيقة وجدوا سيدات في محلات وبيوت خاصة لتلوين شعر النساء والأظافر والرسم الجميل جدًّا المتقن للغاية على اليد والذراع والأرجل بأنواع الحنة المختلفة الألوان، كذلك شاهدوا كيف يتم تجميل العرائس لحفلات الزفاف إنهم بارعون في هذا حقًّا.

اصطحبهم دليلهم إلى سوق تصنيع المشغولات النحاسية، المحفور عليها بمعدات صغيرة ودقيقة سواء كانت هذه المشغولات شمعدانات تخلب الألباب أو الصواني النحاسية التي تبرق من شدة لمعانها وصواني الشاي الثقيلة البراقة والمحفور على بعض منها آيات من

القرآن الكريم لتعلق داخل المنازل، فبالهند ملايين المسلمين.. كذلك شاهدوا تماثيل الحيوانات والطيور التي امتزج فيها النحاس والرخام والعاج والصدف، وضم السوق جانبًا من تجار التوابل والعطور الرائعة التي يتهافت عليها جميع زوار هذه الأسواق.

ولاحظوا أنَّ جميع العاملين بهذه الأسواق يتكلمون اللغة الإنجليزية وهي بالطبع ليست لغتهم الأصلية لأنَّ اللشعب الهندي له العديد من اللغات، ومن العادات الجميلة التي تميِّز الشعب الهندي أن السيدات يرتدين زيًّا خاصًّا يسمى «الساري» يترك فيه الجزء الأوسط من الجسم مكشوفًا، كذلك تضع السيدة في وسط جبهتها دائرة حمراء للتعريف أنها متزوجة. والنساء الهنديات لهن شعرٌ ناعمٌ طويلٌ كباقي شعوب قارة آسيا، بالإضافة إلى استخدامهن الزيوت المغذية للشعر باستمرار وتتميَّز تحيتهم الخاصة للضيوف أو الزوار بضم الكفين وهزِّ الرأس، ولبعض اتباع المذاهب الهندية طريقة في دفن موتاهم لا أحب أن اكتبها بين هذه السطور فهي تخلع القلوب بالنسبة لنا.

إن الشعبَّ الهندي شعبٌ طيبٌ مضيافٌ خالص النية، ملايين منهم مسلمون وملايين مسيحيون، ولكن الأغلبية العظمى شعب محب للغناء والرقص والموسيقى والألوان الزاهية، أما الطقس بالهند فهو شديد الحرارة، كما أنهم يعشقون المخبوزات من الكعك والبسكويت ويتميز

طعامهم بمذاق حار لأنهم يسرفون في تناول الفلفل الحار.

والملفت للنظر كيفية رغيف العيش الذي يتناولونه فهو يخبز في إناء معدني مسطح مخروطي، الشكل، سميك، صحي، لونه أسود، ويرفع الإناء على النار بعد دهنه بقليل جدًّا من الزيت ليتم تسخينه إلى درجة حرارة عالية، وبعد عجن الدقيق يسكب مقدار مغرفة في هذا الإناء المخروطي فتنفرد العجينة فيه وتترك دقيقة وتقلب وتترك لدقيقة أخرى، ثم ترفع من على النار لتغطى بقطعة من القماش النظيف حتى تهدأ حرارتها وتقدَّم للطعام.

كما وجدوا اشياء جميلة وألعابًا خطيرة مثل اللعب بالنار وما إلى ذلك، شعب الهند طيب، نساء ورجال وأطفال، ومنهم بعض الرجال مهنتهم تدريب الحيوانات، خاصة تدريب الثعابين الضخمة الكبيرة على الرقص مع الصفارة بنغمة خاصة، وتستعرض هذه الثعابين في الشوارع ويلتف حولها المارة من السائحين وحتى أهالي البلد في نشوة وفرح، وهؤلاء يكسبون مبالغ طائلة من ذلك، وفي الحواري والأزقة تجد نساءً وشبابًا وأطفالاً يبيعون الزهور بكل أنواعها، وهناك أيضًا أماكن لركوب الأفيال والنزهة بها، إن الهند بلاد طيبة وشعب طيب، وفي المطاعم كل ما لذَّ وطاب، لليلى والعائلة ونوران أختها المريضة التي لم يعرف لماذا هي كسيحة، ولايوجد علاج لها، فقد أفزعها شيء ما

هي نفسها لا تتذكره وبعدها لم تعد تتحرك، نوران شابة جميلة لكنها منطوية على نفسها وحزينة دائمًا وتحب أهلها كثيرًا.

وصلت الأسرة إلى شارع كبير مزدحم بالناس في دائرة كبيرة، الكل حفاة الأقدام يرتدون الملابس البيضاء الفضفاضة، وفجأة وقف شابٌّ أمام نوران وتحدث إليها قليلاً وقال: «لا اله الا اللّه»، ثم مدَّ يده في جراب يحمله وأخذ ثعبانًا صغيرًا وعمل به دائرة عدة مرات، ثم قذفه بقوة على نوران فصرخت صرخة مدوية وأغمى عليها في الحال والتف الناس وسارعت العائلة بنوران إلى المستشفى القريب وأُدخلت العناية المركزة، أما الشاب الذي فعل هذه الفعلة فقد وقع في قبضة الشرطة وزجوا به في السجن.

قضت نوران ثلاثة أيام بالمستشفى تحت رعاية الأطباء، وصباح اليوم الرابع فتحت نوران عينيها وكانت العائلة منتظرة أن تفيق من غيبوبتها، وفجأة بعد ما فتحت عينيها وابتسمت، هلل الجميع بالتكبير: «اللّه أكبر الحمد للّه، نمتِ أيامًا يا نوران» وابتسمت نوران قائلة: «زهقت منكم قلت أنام لي يومين»، وضحك الجميع وبعد برهة ساد المكان هدوء تام، وفجأة ودون أن يلاحظ أحدٌ من العائلة حركت نوران أقدامها دون أن تصدر أي صوت، وزادت الحركة في أصابع الرجل اليمنى، ثم الرجل اليسرى وكانت المفاجأة المذهلة فبسرعة ألقت نوران بالفراش

على الأرض وصرخت: «أمي، أبي، ليلى الحبيبة، إني أحرك قدماي»، وشهق الجميع: «يا إلهي ما أوسع رحمتك الحمد لله رب العالمين»، أخذ الأب يقهقه والأم تزغرد، وارتمت ليلى في حضن زوجها، وعمت الفرحة المكان وسجدت ليلى على بلاط المستشفى وبكت وقرأت آية الكرسي عدة مرات، ثم رفعت عينيها إلى السماء لتشكر الله على كل هذه النعم ورأت العيون الحارسة وسمعت صوته في أذنيها: «لقد أتممت ما نويت عليه، عاد والدك لأمك، وتزوجتي من رجل عظيم، وعادت نوران لطبيعتها وأنا الذي قذفت عليها الثعبان لتعود إليها نفسها بفضل الله اجعليها تصلي وتقرأ القرآن الكريم».

ابتسمت ليلى وجلست تقرأ الآية الكريمة وقبلت يديها، وفجأة دخل الدكتور زوجها وقال للحضور مندهشًا: «لقد ذهبت إلى السجن لكي أخرج الشاب الذي قذف الثعبان على نوران فربما أخطأ وربما يكون عائلاً لأسرة فمنظره فقير جدًّا، ولما سألت الضابط عنه قال لي لم يدخل أي شاب بهذه المواصفات ونظر لي باستهزاء، افتكرني سكران أو مجنون وابتسم وهزَّ رأسه»

صفق الجميع ورفعوا وجوههم إلى السماء، شاكرين، حامدين، وتذكروا عائد كريم هذه الروح الطيبة الذي كان يعلم أن نوران ليست مريضة، بل إنها حالة نفسية أصابتها من سنوات كان عائد بفضل

اللّه بإمكانه أن يجعلها تمشي من أول ما رآها لكنه أراد أن يؤجل ذلك إلى أن ينتهوا من موضوع ليلى ليجعل سعادتهم جميعًا مكتملة ويدخل الفرح والسعادة على الأسرة بفرح ليلى وأوحى إلى الطبيب بفكرة الهند والسفر إليها حتى يصبح شفاء نوران عاديًّا أمام الجميع، ويستتب الأمن في كل مكان حتى في قلوب المقربين من هذه العائلة.

هكذا قارئي المتميز انتهت روايتي مع عائد كريم.. هذه الروح الطيبة المقدامة وصائد الأرواح اللعينة، مع ليلى الشجاعة التي قاست من الأهوال الكثير، مع الأب الذي عاد إلى أسرته واتقى اللّه وتاب إليه، مع طبيب شاب صادق صدوق ناجح في عمله ومتميز، والأم التي عادت إلى زوجها واستقرَّت الحياة بينهما، ونوران المسكينة التي أكرمها اللّه وأعاد لها صحتها.

في هذه الرواية أردت أن أنصح بعض الشباب الذي يستهتر بالقيم والمبادئ، لأننا لسنا وحدنا نعيش على الكرة الأرضية. توجد مخلوقات طيبة ومخلوقات مؤذية تتوعد بالشر والانتقام.

يجب أن نتعقل ونحترم الآخرين ونسمي بالرحمن دائمًا في كل مكان.

تمت بحمد اللّه